.qxd 29/12/2007 11:18 Page 10

مريم عيسى النعيمي

قرارات «أبو أمل» الذاهبة في نفي الذات داخل محطات النضال..

تركت في الذاكرة شعور النداوة والطراوة لكل من اختلطنا بهم وأحببناهم وتقاسمنا معهم الحياة، لم نكن نشعر بالغربة هناك

كل سواحل الدنيا تتشابه برملها، بصوت الموج الهادر برائحته الخاصة

بقلم: أمل النعيمي

عندما قرر بروفايل أن يتناول شيئاً من تجربة ظفار؛ عزمت على تسجيل تجربة أمي (مريم) البسيطة والغنية في تلك المنطقة مع ثلة من أنقياء تاريخ تلك الفترة. ونحن نتذكر تلك الأحداث أجهشت أمي بالبكاء. تذكرتُ عبارة قاسم حداد حيتذكرون نسيانهم، كلما حرك شخص رماد مجامرهم. احتضنتني بقوة الحب الذي تحمله. ثم ابتسمت قائلة: المعاناة ودروبها الوعرة اقتسمتها معك يا أمل، كنت أرى صورة أبيك أمامي دائما، لذلك لم أكن أبالي بالألم والغربة وشقاء التجربة. حملت معي ندى الأيام الماضية بقسوتها وهنائها. كنت أنا وكنت أنت رفيقتي درب وأسرة.

أدركت طبيعة المهمة التي أوفدت من أجلها إلى ظفار. كان عمري ٢٤ سنة. لدي من الأبناء أمل ١١ سنة، خالد ٤ سنوات، ووليد الذي كان في عامه الثاني. كل من يعيش في (حوف) لابد أن يكون لديه عمل يؤديه. وكل من يذهب إليها عليه أن يكون كذلك. كان المقاتلون بحاجة إلى من يخيط لهم ثيابهم العسكرية. ولأني أتقن هذه المهارة. فقد جاء القرار بانتقالي وأطفالي إلى (حوف) العام ١٩٧٢. إنه قرار أبو أمل الذاهب في طرق النضال الوعرة، السالك في طرق قلوبنا العاشقة. هكذا كانت قراراته تصلنا من حيث لا نعلم أين هو.

كل محطات الغربة بداية، لكن هذه المحطة، كانت أكثر البدايات صقلا للنفس وللجسد. تركت في الذاكرة شعور النداوة والطراوة لكل من اختلطنا بهم وأحببناهم وتقاسمنا معهم الحياة، لم نكن نشعر بالغربة هناك، فقد كان الجميع يغمرنا بالمحبة والاهتمام. مازالت ظفار عالقة في الذاكرة بناسها وجبالها وطقسها وبحرها وخضرتها الدائمة وشمسها وقمرها ونجومها واضحة المعالم، بلهجات أهلها، برائحة العطر المتلون بأمزجة النساء، كانت هذه المحطة هي الأكثر شمولية وقربا وتنوعا ودهشة ومتعة وخوفا وامتحانا وثباتا وتناقضا وخلقا.

يتوسدون أمهاتهم

استأجرت لنا الجبهة غرفة صغيرة، في أطراف المنطقة. اقتصرت حياتنا على البساطة. قطعة اسفنجة كبيرة أستخدمها مرتبة نوم. قطع من الأواني التي أستخدمها لتحضير الطعام خارج الغرفة. أشتري الحطب وأقوم باستخدامه للطهي. أجلب الماء من خارج المنزل أحمله في آنية، كانت متطلباتنا تتناسب مع حياتنا البسيطة، حاولت الانخراط ضمن هذا النسيج الجديد بكل أطيافه، حاولت إثبات ذاتي بقدراتي المتواضعة التي أحملها معي. أن أروضها لتخدمني ضمن الظروف التي أزج فيها.

برامجنا تبدأ مع الساعات الأولى للفجر. أنجز متطلبات أطفالي، ثم أتركهم في الغرفة وأذهب راجلة إلى مقر القيادة لأستلم قطع القماش التي سأخيطها. بعد الظهيرة أذهب لمحو الأمية بصحبة أطفالي. نقطع بضع عشرات من الأمتار مشيا باتجاه الجبل. تجتمع النسوة هناك لتعلم مبادئ اللغة العربية قراءة وكتابة وأسس الرياضيات. يشمل ذلك التثقيف الذاتي وطرح بعض القضايا التي تجعلنا على دراية بالأحداث، يتوسد الصغار أرجل أمهاتهم، أو يلعبون بالقرب منهن، تتفرق النسوة بعد ذلك، ويبقى صدى أحاديثهن باللهجة المحلية يلاحقهن حتى يبتعدن عن بعضهن البعض.

أحيانا كنت أذهب وصغاري قرب الشاطئ الممتد، يتبادلون قلاع الرمل التي يصنعونها بأيديهم، تدوي ضحكاتهم في أرجاء الساحل، قد يكون البحر هو المكان الوحيد للبحث عن شيء متشابه في كل الأوطان، كل سواحل الدنيا تتشابه برملها، بصوت الموج الهادر، برائحته الخاصة. شاهدنا كيف يصطادون السلاحف البحرية وتبدأ عملية شواء اللحم. هناك في تلك المنطقة لا يمكنك أن تشمئز أو ترفض العطايا، لابد لك من التذوق، إن كان الطعام من البحر أو من الغابة!!!

أنا بخير

المشروعات التنموية على قدم وساق في تلك البقعة، لذا لا بد من إثبات الذات والمشاركة بجدية وعدم التهاون. كان هاجسي الكبير أن لا أخذل من أرسلني إلى هناك (أبو أمل). همي أن يرى الجميع أني مثلهم، ولست أقل من نسائهم، وأن بنات المدن يحملن كفاءة بنات الجبال.

بقينا شهوراً لا نعرف عن أبو أمل شيئاً حتى وصلتني رسالة يتيمة بيد أحد الرفاق. لم تكن تحمل إلا عبارة واحدة: كيف الحال؟ أنا بخير. هذه العبارة العارية، باختزالها المفرط، كانت كافية لأن تعلمني درس النضال. كأن أبو أمل كان يقول لي: النضال هو أن تكون لغيرك لا لنفسك. كانت هذه العبارة تكفيني لتجعل من وجودي في ظفار ذوباناً آخر.

كل التراكمات الحياتية التي عشتها، والتي كانت تحيط بي، لها في قاموسي الخاص معنى آخر، يطوي معه تحدٍ آخر. ترويض حواسي كلها لأتعلم. قلبي هو البوصلة التي اعتمدت عليها في التوجيه والاختلاط وإثبات الذات. تعمدت أن